المحاضرة السابعة: المنهج الكيفي (النوعي)

1- تعريف المنهج الكيفي (النوعي):

إن المنهج الكيفي أو النوعي هو المجال الذي يتحقق فيه الباحث من كافة الحوادث التي لها علاقة بمشكلة دراسته، ويعتبر هذا المنهج واحد من أهم المناهج التي يتم اللجوء إليها في الدراسات التربوية، وقد تم العمل به بشكل أساسي مع بداية السبعينات من القرن الماضي، لسبب بسيط هو اعتماد كثير من الباحثين قبل ذلك على الدراسات الكمية، وكان معظم الباحثين يعتبرون المنهج النوعي شكل أو نمط من الدراسات الانثروبولوجية أو الدراسات التربوية.

ولقد تم استخدام المنهج الكيفي أو النوعي بشكل أساسي بين عامي (1970-1980) في مجالات وتخصصات متعددة، وأصبح يستخدم بفاعلية في مجال التعليم والدراسات النسائية، دراسات العجز، دراسات المعلومات، دراسات التمريض، الدراسات التربوية، وفي مجالات علم النفس وعلم الاجتماع، وغيره من المجالات العلمية الأخرى.

و يعتمد البحث النوعي على دراسة البيانات والأحداث وقراءاتها بأسلوب غير كمي، حيث لا يتم تحويل البيانات إلى أرقام كما في حالة البحث الكمي.

حيث لا يتم تحويل البيانات إلى أرقام كما في حالة البحث الكمي، وإنما يتم الحصول على النتاج من واقع ملاحظة الأحداث والمواقف والصور والوثائق والاتصالات اللفظية وغير اللفظية وتحليلها، ويتم القيام بالبحث النوعي عادة في ظروف طبيعية، فالإطار أو السياق الذي تحدث فيه الظاهرة قيد البحث يعتبر جزءا من الظاهرة ذاتها، وهنا لا يقوم الباحث بأية محاولة لإدخال ضوابط تجريبية على الظاهرة قيد الدراسة، أو أن يتحكم في المتغيرات الخارجية المحيطة بها، ومعنى هذا أن كل جوانب المشكلة قيد الدراسة يتم فحصها ودراستها.

كما أن البحث النوعي هو معاني، و مفهوم، و تعريف، واستعارات، و رموز، و وصف للأشياء، و بذلك هو بحث يحتوي على جميع الأدوات الضرورية التي يمكن أن تثير الاستدعاء الذي يساعد في حل المشكلات، و تستخدم أدوات البيانات النوعية مثل الملاحظة و الأسئلة المفتوحة و المقابلة المتعمقة (الصوت أو الفيديو) و الملاحظات الميدانية لجمع البيانات من المشاركين في بيئاتهم الطبيعية، بحيث تعطي هذه الأساليب المستخدمة في جمع البيانات وصفا كاملا للبحث فيما يتعلق بمشاركة المعنيين، كما انه ينظر نهج البحث النوعي إلى الفكر و السلوك البشريين في سياق اجتماعي و يغطي مجموعة واسعة من الظواهر من اجل فهمها و تقديرها بدقة.
- البحث النوعي هو وسيلة لاستكشاف و فهم المعنى الذي ينسبه الأفراد أو الجماعات إلى مشكلة اجتماعية أو إنسانية، تتضمن عملية البحث أسئلة و إجراءات ناشئة، و البيانات التي يتم جمعها عادة في إعداد المشارك، و تحليل البيانات بشكل استقرائي من التفاصيل إلى الموضوعات العامة ، و يقوم الباحث بعمل تفسيرات لمعنى البيانات، و التقرير النهائي المكتوب له هيكل مرن.

ومن هنا يمكن القول بأن المنهج الكيفي هو الآخر من بين المناهج الكبرى التي تعتمد على وصف وكذلك تحليل الظاهرة كيفيا انطلاقا من المقاربة الاستقرائية، ولقد نادى بهذا المنهج **"ماكس فيبر"**

2- متى يتم استخدام البحث النوعي:

يتم اللجوء إلى الدراسات النوعية عندما تكون هناك معرفة محدودة أو بسيطة عن مجال أو موضوع معين، وعندما يشك الباحث في المعرفة المتاحة في هذا المجال، أو النظريات المتوفرة عنه، أو أن هذه النظريات التي يراها الباحث متحيزة، وعندما يكون سؤال البحث موجها، أو يسعى لفهم أو وصف ظاهرة معينة أو حدث معين لا يعرف الباحث الكثير عنه، أو تتوفر عنده معرفة محدودة، ومن هذا المنظور فإن جزءًا كبير من الدراسات الاستكشافية

(الاستطلاعية) يُعد نوعا من الدراسات النوعية، ذلك أن البحث الاستكشافي يتم استخدامه عندما لا تتوفر معلومات كافية عن الظاهرة أو المشكلة محل البحث، خاصة في حالة عدم توفر دراسات سابقة حول المشكلة المدروسة.

وعليه يمكن القول أن المنهج الكيفي يستخدم عندما يكون حجم العينة صغير وبالخصوص في المواضيع الصعبة من حيث الطرح والمعالجة مثل الطابوهات كزنا المحارم، الدعارة، الاغتصاب، التحرش الجنسي وغيرها...إلخ

3- تقنيات المنهج الكيفي:

3-1- الملاحظة النوعية:

تعتبر الملاحظة من أقدم وأكثر وسائل جمع المعلومات شيوعاً، حيث استخدمها الإنسان الأول في التعرف على الظواهر الطبيعية، ثم انتقل استخدامها إلى العلوم بشكل عام وإلى العلوم الاجتماعية و الإنسانية بشكل خاص.

والملاحظة النوعية هي أقل تنظيما من ذلك فالباحث لا يستخدم تصنيفات وأنماطا محددة سلفا، بل يسجل ملاحظاته بشكل طبيعي ومفتوح، فيقوم بتسجيل الواقع كما يحدث، والفكرة الأساسية هنا هي أن التصنيف والتوصيف الذي تتعرض له المعلومات الناتجة عن الملاحظة ستظهر بعد جمع المعلومات وتحليلها، ولا يتم ذلك أثناء عملية الملاحظة.

وعليه ما يمكن قوله أن الملاحظة قد تكون نوعية كيفية أر كمية رقمية، بمعنى أن طبيعة الموضوع هي التي تفرض طبيعة الملاحظة المناسبة.

3-2- المقابلة:

تعرف المقابلة على أنها لقاء يتم بين الشخص المقابل(الباحث أو من ينوب عنه) والذي يطرح مجموعة من الأسئلة على الأشخاص المستجيبين وجها لوجه، ويقوم الباحث أو المقابل بتسجيل الإجابات وتدوينها على الاستمارات، ومن هنا لابد من طرح الأسئلة بطريقة واضحة بعيدة عن الغموض والحيرة وبعدها تسجيل الإجابات بدقة كما وردت على لسان المستجيب، ويفضل أن يتم التسجيل مباشرة خلال المداخلة.

كما أن المقابلة تعتبر من الطرق الرئيسية لجمع المعلومات في البحث النوعي الكيفي، فمن خلالها يستطيع الباحث أن يتعرف على أفكار الآخرين ومشاعرهم ووجهات نظرهم.

كما تمكن هذه الطريقة الباحث من إعادة بناء الأحداث الاجتماعية التي لم تلاحظ مباشرة.

ومن هنا فالمقابلة تعتبر من بين الأدوات والتقنيات التي تستخدم في إطار المنهج الكيفي النوعي، والتي تعتمد بالدرجة الكبيرة على عملية الوصف.

3-3- الوثائق:

الطريقة الأساسية الثالثة لجمع المعلومات في البحث النوعي الكيفي في تحليل الوثائق.

حيث تعد الوثائق التاريخية أو الحديثة مصدرا مهما للبحث التربوي النوعي، فمن خصائص المجتمع الحديث في التوثيق.

فالتقارير التي يكتبها المشرفون التربويون كل عام، والتوجيهات التي يدونوها في سجلات المدارس عند زيارتها، وما يكتبه المعلمون والخبراء من تقارير وبحوث وملاحظات، وما يصدر من تقارير وتوجيهات رسمية، بل ما قد يكتبه الطلاب في دروس الإنشاء أو في رسائلهم للمعلمين، كل هذه تعتبر وثائق مهمة للباحث ويستطيع من خلال دراستها وتحليلها والتوصل إلى نتائج مهمة ومفيدة.

وقد يدخل في تحليل الوثائق خصوصا في بعض أنواع البحث النوعي الكيفي مثل البحث الإثنوجرافي، كدراسة الصور والأعمال الحرفية اليدوية، وكل ما يتعلق بالثقافة و أنماط الحياة الاجتماعية.

وعليه فالوثائق تعد من الطرائق الأساسية التي تسعى إلى وصف الأحداث وتحليلها، بالاعتماد على المنهج الكيفي النوعي في تفسير هذه الأحداث.

4- الفرق بين المنهج الكمي والكيفي:

يهتم المنهج النوعي (الكيفي) بالبحث في الإجابة عن الأسئلة التي تبدأ بـ لماذا؟ وكيف؟ وبأي طريقة؟ بينما المنهج الكمي يهتم بصورة أكبر بالأسئلة حول كم الثمن؟ كم العدد؟ كم في الغالب؟ وإلى أي مدى؟

وهناك فروق جوهرية بين المنهجين تتلخص في النقاط التالية:

1- المنهج الكيفي يهتم بالآراء، ووجهات النظر، والتجارب والخبرات الإنسانية وأحاسيس الأفراد وشعورهم، فهو يقدم لنا بيانات ذاتية وليست موضوعية.

2- المنهج الكيفي يصف لنا الظاهرة الاجتماعية كما تحدث طبيعيا، فليس هناك محاولة للتأثير واستغلال الوضع تحت الدراسة، كما هو الحال في المنهج التجريبي الكمي.

3- في المنهج النوعي يتم فهم الوضع من خلال المنظور الكلي والشامل للموضوع، بينما يعتمد المنهج الكمي على تحديد عدد من المتغيرات.

4- في المنهج الكيفي يتم استخدام البيانات والمعلومات لبناء وتطوير مفاهيم ونظريات تساعدنا على فهم العالم الاجتماعي، فهو أسلوب استقرائي للبناء وتطوير النظريات، بينما المنهج الكمي يقوم باختيار نظريات موجودة وتم اقتراحها فهو أسلوب استنباطي.

5- يتم جمع البيانات والمعلومات في المنهج الكيفي من خلال مواجهة مباشرة مع الأفراد والمجموعات ومن خلال المقابلات الفردية أو الجماعية أو الملاحظات فجمع المعلومات يستهلك وقتا طويلا.

6- طبيعة جمع البيانات والمعلومات في المنهج الكيفي (النوعي)، والوقت الطويل الذي تستغرقه تتطلب استخدام عينات صغيرة.

7- في المنهج الكيفي نستخدم تقنيات مختلفة عند اختيار العينات، فالعينة سعي للحصول على المعلومات من مجموعات محددة أو مجموعات فرعية من مجتمع الدراسة، بينما في المنهج الكمي تسعى العينات لعرض نتائج ممثلة من خلال الاختيار العشوائي للموضوعات.

8- المعايير المستخدمة في المنهج الكيفي للتحقق من الصدق والثبات تختلف عن تلك المعايير المستخدمة في المنهج الكمي.

9- إن استعراض كثير من نصوص الكتب توحي لنا بسمات ومصطلحات متعددة ومختلفة تستخدم لوصف كلا المنهجين.

الجدول أسفله يلخص أهم الاختلافات الموجودة بين المنهجين الكيفي والكمي.

جدول رقم01: يمثل الاختلافات الموجودة بين المنهجين الكيفي والكمي

المنهج الكيفي	المنهج الكمي
يركز على دراسة المشكلة بشكل كيفي في سياقها الطبيعي.	يركز على دراسة المشكلة بشكل كمي كما حدثت.
جذوره الفلسفية ظاهراتية، تفاعلية رمزية.	جذوره الفلسفية وضعية، تجريبية منطقية.
يرتبط بعبارات العمل الميداني، اثنوغرافي، واقعي.	يرتبط بعبارات تجريبي، تجربة، إحصاءات.
الهدف من البحث فهم، وصف، اكتشاف، توليد الفرضيات.	الهدف من البحث التنبؤ، الضبط، الوصف، اختبار الفرضيات.
تصميمه مرن، متطور، قابل للتعديل.	تصميمه ثابت، منظم، غير قابل للتعديل.
الباحث هو الأداة الرئيسية للبحث.	يستخدم الاستبيان، وسلالم وقوائم التقدير.
يستخدم العينات غير الاحتمالية.	يستخدم العينات الاحتمالية.
هدفه ليس التعميم، إلا على الحالات المشابهة.	هدفه التعميم على جميع أفراد المجتمع.
تحليل النتائج يقوم بها الباحث بشكل استقرائي	تحليل النتائج يقوم بها الحاسوب بشكل إحصائي.
النتائج شاملة، كلية، توسعية.	النتائج دقيقة، ضيقة، اختزالية.

بالرغم من الاختلافات الموجودة بين المنهجين الكمي والكيفي، إلا أنه في حقيقة الأمر يمكن استخدام المنهجين في دراسة واحدة، حيث يلاحظ بان الدراسات التي تعتمد على المنهجين تكون من بين الدراسات القوية من حيث الطرح والمعالجة، وتكون نتائجها أكثر دقة وموضوعية.

5- الجمع بين المنهج الكمي والكيفي:

- يمكن أن تجمع بين البحث الكمي والكيفي من خلال ما وصل إليه الباحثون، حيث أن البحث الكمي والنوعي (الكيفي) يكمل البعض وذلك خلال البحث الواحد أو بحثين متفرقين.
- لذا فإنه يشبه البعض البحث الكمي الكلي بأنه عملية إنتاج خريطة لمكان ما وهذا ضروري لتلمس الطريق إلى ذلك المكان، فالخريطة مهمة ومفيدة للغاية، لأنها ترسم الطريق إلى الموقع والمكان وتوضح علاقته بالأماكن الأخرى المجاورة والبعيدة.
- ومن خلال هذا يمكن أن نشرح على ما ورد في النص بين الإطارين على أنه خريطة للإنتاج بالنسبة للكمي ثم تتحقق واتصال إلى سينمائي مثلا وهو ما يقصد به الكيفي.

إن من أهم الأسباب التي جعلت البحثين يجتمعان كالتالي:

- السببية التي تجعل البحوث العلمية ضرورة لدمج المنهجية والأدوات.
- الشروط المطلوبة والمناخ الملائم.
- يجب على الباحث أن يكون على علم بكل شروط المنهجين ليسهل الجمع بينهما.

لذلك كان لزاما على الباحث أن ينتهج مايلي:

- الإستبيان المستعمل مع المنهج الكمي مع المقابلات المعمقة للكيفي.
- البيانات والاستنتاجات تكون رقمية إحصائية في المنهج الكمي، كما يمكن أن تكون النتائج وصفية إنشائية معمقة كما في المنهج النوعي (الكيفي).
- المرونة في البحوث النوعية (الكيفية) مع ضمان عدم التحيز كذلك ممكن أن ينطق هذا على البحوث الكمية.